مقدمة التفسير

«للعلامة الشهير»

أبي القاسم الراغب الأصفهاني

رحمه الله تعالى

آمين

(طبعت على نفقة راجي عفو ربه الكريم)

محمد سعيد الرافعي
١٣٢٤

صاحب المكتبة الأزهرية

(الطبعة الأولى سنة ١٣٢٩)

(لا يسوغ لأحد أن يطبع هذه المقدمة الا اذا أظهر نسخة خطية)

طبع بمطبعة الجمالية — بمصر

إعداد: أحمد بزوي الضاوي
أستاذ التعليم العالي مساعد
بشعبة الدراسات الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي
الجديدة
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه. وصلى الله على النبيّ وأوليائه. ونسأله أن يجعلنا ممن ابتدأه بفضله ونعمته. وأعقبه برأفته ورحمته. وأن يجعلنا ممن أسبل عليه نور عصمة الأنبياء. وحصن قلوبهم بطهارة النقاء. انه لطيف لما يشاء. (قال) الشيخ أبو القاسم الراغب رحمه الله تعالى القصد في هذا الاملاء إن نفس الله في العمر ووقانا من نوب الدهر وهو مرجو أن يسعفنا بالامرين أن نبين من تفسير القرآن وتأويله نكتا بارعة تنطوى على تفصيل ما أشار اليه أعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف المتقدمين رحمهم الله مجملة ونبين من ذلك ما ينكشف عنه السر ويثلج به الصدر وفقنا الله لمرضاته برحمته وجعل سعينا مسعودا. وفعلنا فى الدين محمودا. فمنه يستجلب مبدأ التوفيق ومنتهاه.

(ويلبرم) [illegible]

﴿ فصول لابد من بيانها فى مبدإ الكتاب ﴾

فصل فى بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام المفرد والمركب. الكلام ضربان مفرد ومركب، فالمفرد المسمى بالاسم والفعل والحرف وذلك بالوضع الاصطلاحى سمى بذلك فأما بالوضع الاوّل فكله يسمى اسما ويحق أن صار ثلاثة أقسام فان الكلام إما أن يكون مخبرا عنه وهو الملقب بالاسم وإما خبرا وهو الملقب بالفعل وإما رابطا بينهما وهو الملقب بالحرف والقسمة لا تقتضى غير ذلك وما كان من الخبر نحو فاعل ومفعل والبصريون يسمونه اسما اعتبارا

باحكام لفظية لانه يدخله ما يدخل الاسماء من التنوين والجر وحروفه والالف واللام ويخبر عنه والكوفيون يسمونه الفعل الدائم أما الفعل فاعتبارا بالمعنى وهو ان قائما فيه معنى يقوم وأما الدائم فلأنه يصلح للازمنة الثلاثة وان كان الحال أولى به فى أكثر المواضع والاصل فى الالفاظ أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني لكن ذلك لم يكن فى الامكان إذ كانت المعاني بلا نهاية والالفاظ مع اختلاف تركيبها ذات نهاية وغير المتناهى لا يحويه المتناهى فلم يكن بد من وقوع اشتراك في الالفاظ. ويجب أن يعلم أن للفظ مع المعني خمس أحوال الأوّل أن يتفقا فى اللفظ والمعنى فيسمى اللفظ المتواطئ نحو الانسان اذا استعمل فى زيد وعمرو والثانى أن يختلفا فى اللفظ والمعنى ويسمى المتباين نحو رجل وفرس الثالث أن يتفقا فى المعنى دون اللفظ ويسمى المترادف نحو الحسام والصمصام الرابع أن يتفقا فى اللفظ ويختلفا فى المعنى ويسمى المشترك والمتفق نحو العين المستعملة في الجارحة ومنبع الماء والديدبان وغير ذلك والخامس أن يتفقا فى بعض اللفظ وبعض المعنى ويسمى المشتق نحو ضارب وضرب والذى يقع فيه الاشتباه من هذه الخمسة الالفاظ المشتركة والالفاظ المتواطئة هل هي عامة أو خاصة والمشتقة مم اشتق كقولهم النبي والبرية منهم من قال من أنبأ وبرأ فتركت الهمزة ومنهم من قال من النبوة وهى الربوة ومن البرا وهو التراب.

﴿ فصل في أوصاف اللفظ المشترك ﴾

اللفظ انما يحصل فيه التشارك بأن يستوى اللفظان فى ترتيب الحروف وعددها وحركاتها ويختلفا فى المعنى نحو عين وكلب فأما إذا اختلف ترتيب الحروف نحو حلم وحمل أو العدد نحو التنا والتنا وقدر وقدر أو الحركة نحو قدم وقدم أو لم يختلفا فى المعنى نحو الانسان اذا استعمل فى زيد وعمرو فليس شيء من ذلك من الاسماء

المشتركة فان الذى اختلف فى العدد ربما كان من المشترك نحو ضاوب وضرب وربما كان من المتباينة نحو القنا والقنابل وربما كانت الكلمة صورتها صورة المشترك فى اللفظ وتكون من المشتقة لاختلاف تقديرها نحو المختار اذا كان فاعلا فان تقديره مختير واذا كان مفعولا فان تقديره مختير وكذا فلان منحل وأمر منحل فيه والفلك اذا كان واحدا كقفل واذا كان جمعا فانه كوثن وناقة هجان وامرأة ضناك فانها كحمار ونوق هجان كقوم كرام وعلى ذلك هم يغزون نحو يخرجون وهن يغزون نحو يخرجن وأنت تعصين نحو تشتمين وأنتن تعصين نحو تشتمن ونحو دبر مصدر دبر وجمع الدابر نحو ركب وكثيرا ما يلتقى فرعان للفظين متفقين فى الصيغة وهما مختلفان في المعنى نحو المصباح لما يشرب منه الصبوح وما يشتق من صبحت؛ أى أسرجت واشتكى لاظهار الشكوى ولاتخاذ شكوة اللبن .

(فصـل) الاشتراك في اللفظ يقع لاحد وجوه إما أن يكون في لغتين نحو الصقر للبن اذا بلغ غاية الحموضة في لغة أكثر العرب والصقر للدبس في لغة أكثر أهل المدينة وإما أن يكون أحدهما منقولا عن الآخر أو مستعارا والفرق بينهما أن المنقول هو الذى ينقله أهل صناعة ما عن المعنى المصطلح عليه أولا إلى معنى آخر قد تفردوا بمعرفته فيبقى من بعد مشتركا بين المعنيين وعلى ذلك الالفاظ الشرعية نحو الصلاة والزكاة والالفاظ التى يستعملها الفقهاء والمتكلمون والنحويون . وأما المستعار فالاسم الموضوع لمعنى فتستعيره لمعنى آخر له اسم وضعى غيره فتستعمله فيه لمواصلة توجد بين المعنيين كتسمية الشجاع بالاسد والبليد بالحمار والفرق بين حكم المنقول والمستعار أن المنقول شرطه أن يتبع فيه أهل تلك الصناعة والمستعار لكل واحد أن يستعين فيستعمله إذا قصد معنى صحيحا فيكون متضمنا لمعنى

التشبيه نحو أن تقول ركبت برقا فتعني به فرسا كالبرق سرعة ورأيت بحرا أى سخيا كالبحر وأما المشتق فشرطه أن يشارك المشتق منه فى حروفه الاصلية ويوجد فيه بعض معناه ويخالفه اما فى الحركات نحو ضرب وضرب أو فى الزوائد من الحروف نحو ضرب وضارب واستضرب أو في التقدير نحو المختار اذا كان فاعلا أو مفعولا وسائر ما تقدم فقد بان بهذه الجملة أنواع مفردات الالفاظ وما يقع فيه الاشتباه . وأما المركب من اللفظ فما ركب من هذه الثلاثة والتركيب على ضربين تركيب يحصل به جملة مفيدة وذلك اما من اسمين أو من اسم وفعل أو تقدير ذلك وتركيب لا يحصل به ذلك ويكون اما من اسمين يجعلان واحدا نحو خمسة عشر وبعلبك أو اسم مضاف الى اسم نحو عبد الملك أو اسم وفعل نحو تأبط شرا أو اسم وصوت نحو سيبويه أو فعل وحرف نحو هلم أو حرفين نحو انما أو من جمل من الكلام وذلك لا يكون الا بحذف بعضها نحو بسملة وحيعلة وحوقلة في قولهم بسم الله وحى على الصلاة ولا حول ولا قوة الا بالله وجميع ما يقع فيه الشبه من الكلام المركب لا يخلو اما ان يكون لشئ يرجع الى مفردات الكلام وذلك على التفصيل المتقدم واما لشئ لا يرجع الى ذلك وذلك لا يخلو اما ان يكون من جهة المعنى أو من جهة اللفظ فاما ما كان من جهة المعنى فلا سبيل الى ازالته بتعيين العبارات وذلك ان المعانى ضربان جلى وغامض فالجلى ما يمكن ادراكه بادنى تأمل كقوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا) وقوله تعالى (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئا) الى قوله (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) [وأما الغامض فعلى ثلاثة أضرب الاول ان يكون المعنى فى نفسه خفيا ٣
نحو الكلام في صفات البارئ سبحانه ونفى التشبيه عنه والثانى ان يكون

أحوالهم فالبلغاء تعرف من فصاحته والفقهاء من أحكامه والمتكلمون من براهينه العقلية وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه وقد علم أن الانسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه وعلى ذلك أخبار النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها كما سمعها حتى يؤديها إلى من لم يسمعها فرب مبلغ أوعى من سامع.

﴿ فصل في الفرق بين التفسير والتأويل ﴾

الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جعل الفسر لاظهار المعنى المعقول ومنه قيل لما ينبئ عن البول تفسرة وتسمى بها قارورة الماء وجعل السفر لابراز الاعيان للابصار فقيل سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح وسفرت البيت اذا كنسته والتأويل من آل يؤل اذا رجع والتفسير أعم من التأويل وأكثر ما يستعمل التفسير في الالفاظ والتأويل في المعاني كتأويل الرؤيا والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الالهية والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الالفاظ والتأويل أكثره يستعمل في الجمل.

فالتفسير إما أن يستعمل في غريب الالفاظ كالبحيرة والسائبة والوصيلة أو في تبيين وشرح كقوله (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى « انما النسيء زيادة في الكفر » وقوله تعالى « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » الآية. وأما التأويل فانه يستعمل مرة عاما ومرة خاصا نحو الكفر المستعمل تارة في الجحود المطلق وتارة في جحود البارئ خاصة والايمان المستعمل في التصديق المطلق تارة وفي تصديق

دين الحق تارة وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة نحو لفظة وجد المستعمل في الجدة والوجد والوجود والتأويل نوعان مستكره ومنقاد فالمستكره ما يستبشع اذا سبر بالحجة ويستقبح بالتدليات المزخرفة المزوجة وذلك على أربعة أضرب الأول أن يكون لفظ عام فيخصص في بعض ما يدخل تحته نحو قوله تعالى « وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين » حمله بعض الناس على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقط والثاني أن تلفق بين اثنين نحو قول من زعم أن الحيوانات كلها مكلفة محتجا بقوله تعالى « وان من أمة الا خلا فيها نذير » وقد قال تعالى « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » فدل بقوله أمم أمثالكم أنهم مكلفون كما نحن مكلفون والثالث ما استعين فيه بخبر مزور او كالمزور كقوله تعالى « يوم يكشف عن ساق » قال بعضهم عني به الجارحة مستدلا بحديث موضوع والرابع ما يستعان فيه باستعارات واشتقاقات بعيدة كما قاله بعض الناس في البقر أنه انسان يبقر عن أسرار العلوم وفي الهدهد انه انسان موصوف بجودة البحث والتنقير فالأول أكثر ما يروج على المتفقهة الذين لم يقووا في معرفة الخاص والعام والثاني على المتكلم الذي لم يقو في معرفة شرائط النظم والثالث على صاحب الحديث الذي لم يتهذب في شرائط قبول الاخبار والرابع على الأديب الذي يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات والمنقاد من التأويل ما لا يعرض فيه البشاعة المتقدمة وقد يقع الخلاف فيه بين الراسخين في العلم لاحدى جهات ثلاث إما لاشتراك في اللفظ نحو قوله تعالى « لا تدركه الابصار » هل هو من بصر العين أو من بصر القلب أو لأمر راجع إلى النظم نحو قوله تعالى « وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا » هل هذا الاستثناء مقصور على المعطوف أو مردود اليه والى المعطوف عليه معا وإما لغموض

التأويل المستكره أي التأويل المردود

التأويل المنقاد أي التأويل المقبول

المعني ووجازة اللفظ نحو قوله تعالى « وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » والوجوه التي يعتبر فيها تحقيق أمثالها أن ينظر فان كان ما ورد فيه ذلك أمرا أونها عقليا فزع فى كشفه إلى الادلة العقلية فقد حث تعالى على ذلك فى قوله تعالى « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب » وان كان أمرا شرعيا فزع فى كشفه الى آية محكمة أوسنة مبينة وان كان من الاخبار الاعتقادية فزع الى الحجج العقلية وان كان من الاعتبارية فزع الى الاخبار الصحيحة المشروحة فى القصص ·

﴿ فصل في الوجوه للتي بها يعبر عن المعنى ويبين بها ﴾

لما كان المعني الواحد يقرب من الافهام بعبارات مختلفة لاغراض متفاوتة وجب أن يبين الوجوه التي منها تختلف العبارات عن المعنى الواحد فالمعني الواحد قد يدل عليه بأشياء كثيرة إما باسمه نحو إنسان أو نسبه نحو آدمى وولد حواء أو بأحد خصائصه اللازمة له نحو المنتصب القامة أوالماشى برجليه أوالعريض الاظفار وأما بفضله اللازم كقولك الناطق المائية وكما يبين الشئ بأوصاف كثيرة كذلك قد يبين بأسماء كثيرة متضمنة لاوصاف مختلفة كقولهم فى الجرم العلوى السماء لما اعتبروا ارتفاعها بالاضافة إلى الارض والجرباء لما اعتبروا نجومها وأنها كجرب فى الجلد والخلقاء والملساء لما اعتبروا حالها عند فقدان نجومها والرقعاء لما اعتبروا ظهور شبه الرقاع فى المرقع والخضراء لما اعتبروا لونها وعلى ذلك قولهم فى المرءة الزوج لما اعتبرت بازدواجها بالرجل والظعينة لما اعتبر ظعنها معه والقعيدة لما اعتبرت بقعودها في البيت أو بكونها مطية له كالقعود من الجمال والقعدة من الافراس ألا ترى أنها سميت مطية في قول الشاعر ·

مطيات السرور فويق عشر ٭ إلى عشرين ثم قف المطايا

وحلية اذا اعتبر حلولها معه أو حل الأزار له وذلك يفعل لاحد أمرين إما لان الشئ في نفسه لا يمكن ابرازه الا بالعبارات الدالة على أوصافه كمعرفة الله عز وجل لما صعبت لم يكن لنا سبيل اليها الا بصفاته وكأن الله تعالى جعل لنا أن نصفه بهذه الاوصاف لتكون لنا ذريعة إلى معرفته اذ لا سبيل لنا اليها الا الاستدلال بأوصافه وأفعاله ولذلك قال موسى عليه السلام لما سأله فرعون (وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما) ولما قال له (فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) فلم يجبه عن الماهية لما كان البارى تعالى منزها عنها وأحاله إلى صفاته الكثيرة · واما لان الشئ له تركيبات وأحوال فيجعل له بحسب كل واحد منها اسم كما تقدم في أسماء السماء وبحسب ذلك قال عليه الصلاة والسلام سميت محمدا وأحمد وخاتما وحاشرا وعاقبا وماحيا لانه محمود وحامد وخاتم الانبياء وحاشر لانه بعث مع الساعة (نذير لكم بين يدى عذاب شديد) وعاقب لانه عقب الانبياء وماح لانه محى به سيئات من اتبعه ·

﴿ فصل فى الحقيقة والمجاز ﴾

الحقيقة مشتقة من الحق والحق يستعمل على وجهين · أحدهما في الموجود الذى وجوده بحسب مقتضى الحكمة نحو قولنا الموت حق والبعث حق والحساب حق والثانى للاعتقاد المطابق لوجود الشئ فى نفسه أو فى القول المطابق لمعنى الشئ الذى هو عليه نحو أن يقال ان اعتقاد فلان فى البعث حق وقوله فى الثواب والعقاب حق ويضاد الحق الباطل واذا فهم الحق فهم الباطل لان العلم بالمتضادين واحد · وأما الحقيقة فانها تستعمل فى المعنى تارة وفى اللفظ تارة فأما استعمالها فى المعنى تارة

خاص و بالاضافة الى زيد وعمرٍ وعام والعام اذا حمل على الخاص صدق القول نحو زيد انسان وحيوان والانسان والخاص اذا حمل على العام كذب نحو الحيوان انسان والانسان زيد الا اذا قيد لفظاً أوتقديرا فيقال هـذا الانسان زيد أو الانسان زيد ويجعل الالف واللام للعهد لا للجنس أو يراد ان معنى الانسانية كله موجود فى زيد فاذا ثبت ذلك فالمفسر اذا فسر العام بالخاص فقصده ان يبين تخصيصه ويذكر مثاله لانه لم يرد انه هوهو لا غير وكثير ممن لم يتدرب بالقوانين البرهانية اذا رأى عاما مستعملا فى خاصين قدر ان ذلك جار مجرى الاسماء المشتركة فيجعله من بابها وعلى ذلك رأيت كثيرا ممن صنفوا في نظائر القرآن فقالوا الاثم ارتكاب الذنب والاثم الكذب احتجاجا بقوله « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما) والاثم عام في المقال والفعال وانما خص في هذا الموضع لان السماع ليس الا في المقال وعلى ذلك قال اللحيانى الخوف القتال لقوله (فاذا ذهب الخوف سلقوكم) والقتل لقوله (واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به) والعلم لقوله (لمن خاف من موص جنفاً أو اثماً) أى علم وذلك من ظهور سوء التصور بحيث لا يحتاج الي تبين وأما الخاص فتفسيره بالعام جائز اذا قصد تبيين جنسه نحو الحرباء دويبة والحرباء الحيوان

﴿ فصل فى تبيين الوجوه التى يجعل لاجلها الاسم فاعلا في اللفظ ﴾

وهو فصل يكثر الشبه لأجله ويتعلق به الفريقان المنسوبان الى الجبر والقدر كل فعل من أفعال غير الله تعالى نحو التجارة والكتابة يحتاج في حصوله الى أشياء الى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار والى عنصر يعمل فيه كالخشب والى عمل كالنجر والى مكان وزمان يعمل فيهما والى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت والى مثال يعمل عليه ويحتذى نحوه والى غرض يعمل لاجله مايعمل ثم الفاعل

قد يحتاج الى من يسدده ويرشده والغرض قد يكون على نحوين قريب وبعيد فالقريب اتخاذ النجار الباب ليحصل به نفعاً والبعيد ليحصن البيت وكل ذلك قد ينسب اليه الفعل فيقال أعطانى زيد اذا باشر العطاء وأعطانى الله لما كان هو الميسر له وربما جمع بين السبب القريب والبعيد فيقال اعطانى الله وزيد قال الشاعر ٠

حبانا به جدنا والاله   وضرب لناجذم صائب

فنسب الى المسبب الاول وهو الله تعالى والى السبب الاخير وهو الضرب والى المتوسط وهو الجد وقال تعالى (الله يتوفى الانفس حين موتها) وقال تعالى « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » فاسند الفعل في الاول الى الآمر به وفي الثانى الى المباشر له وقال الشاعر في صفة درع ٭ والبسنيه اليها لكى ٭ وقال آخر كساهم محرق فنسب في الاول الي عاملها وفي الثانى الى مستعملها وفي صفة نبال ٭ كستها ريشها مضرحية ٭ فنسب كسوتها الى الطير التى اتخذ منها ريشها وقيل يداك أوكتا وفوك نفخ فنسبه الى الآلة المتصلة ويقال سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة وقيل ضرب فيصل وفاصل وطعن جائف فنسب الى الحدث وقيل سر كاتم وعيشة راضية فنسب الى المفعول وقال « حرما آمنا » فنسبه الى المكان وقيل يوم صائم وليل ساهر وقال ٭ وما ليل المطى بنائم ٭ فنسبه الى الزمان فلما كانت أفعالنا على ذلك صح فى الفعل الواحد أن يثبت لاحد الاسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين على ذلك قول الشاعر ٠

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى ٭ حسن اللقا حرمت من لم يحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه معا بنظرين مختلفين ويقال هذا الخشب قطعته لم يقطعه السكين بمعنى أنه جعل تأثيره لك لا للسكين ويقال قطعه السكين لم يقطعه

وبتصور هذا الفصل تزول الشبهة فيما يرى من الافعال منسوبا إلى الله تعالى منفيا عن العبد ومنسوبا إلى العبد تارة منفيا عن الله تعالى نحو قوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وقوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » وبيان ذلك أن الفعل الذى تباشره يعتبر على وجهين أحدهما بالاضافة إلى مباشره فيقال فعل فلان كذا ولم يفعل كذا والثاني الاعتبار بميسره والمقدر له والموفق لسبيله وأنه لولا سوابق نعمه لما وجد ذلك بل ما وجد شيء من أفعالنا وذواتنا وأنه تعالى السبب الأول الذى يصح ارتفاع ما سواه ولا يصح ارتفاعه، تعالى علواً كبيراً فاذا النظر إلى أفعالنا وإلى من يسرها لنا نظران نظر من أفعالنا إلى فعل البارى فيتوصل بها إلى معرفته ونظر من إنعامه علينا بقوانا وتسبيل سبيلنا إلى ايجاد أفعالنا وهذا الثاني لا سبيل الى تصوره لمن لم يوفق فى الاول ولم يجعله ذريعة إلى الوصول إلى هذا وبهذا السبيل دعا الناس إلى الايمان فقال (آمنوا بالله) (ومن آمن وعمل صالحا) (وأن ليس للانسان الا ماسعى) فلما نبأهم عرفهم أن ذلك كله بتوفيقه فقال تعالى « قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم » وقال تعالى « ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور » فلما علم تعالى أن قد صار لهم قوة يمكنهم أن ينظروا من آلائه إلى أفعالهم قال تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى » فأضاف أفعالهم إلى نفسه عند تناهي معارفهم بخلاف مافعل فى الاول فاذا تقررت هذه الجملة علم أنه لا فاعل فى الحقيقة منفردا غير الله تعالى اذ كل فاعل يحتاج إلى معاون على ما تقدم البيان فيها والله تعالى كل أفعاله ابداع لا فى مادة ولا من شيء ولا على مثال ولا فى زمان ولا فى مكان ولا بآلة ولا بمرشد ومعين فهو الفاعل الحقيقى وما سواه فاعل على

ضرب من التوسع وبهذا النظر ورد الشرع وأجمع الصدر الأول من المؤمنين على أن الافعال كلها بمشيئة الله وارادته ومن جهته وأطلقوا على الله لفظ الشيء كما يطلق على غيره بنظرين مختلفين فان بعض الناس قد ذكر أن الشيء فى الاصل مصدر شاء فاذا استعمل فيه تعالى فبمعنى الشائي واذا استعمل فى غيره فبمعنى المشاء وذلك فى اللغة مستمر لان المصدر يطلق على الفاعل والمفعول جميعاً قال وتصور هذه الحقيقة من لفظة الشيء مما ينبهنا أن هذه اللفظة من جهة الله تعالى.

(فصل في بيان الالفاظ التي تجيء متنافية في الظاهر)

كثيرا ما تجيء الالفاظ في الظاهر كالمتنافي عند من لم يتدرب بالبراهين العقلية والعلوم الحقيقية وربما يغالط الملحد بألفاظ من القرآن في نحو ذلك المعجزة فيشككهم مثل أن يقول قد ثبت من بداية العقول أن النفى والاثبات في الخبر الواحد اذا اجتمعا لابد من صدق أحدهما وكذب الآخر نحو أن يقال زيد خارج زيد ليس بخارج وقد رأينا في القرآن أخبارا متنافية فلا بد من أن يكون أحدهما صدقا والآخر كذبا وذلك مثل قوله تعالى « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » مع قوله فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وقوله اخبار عن الكفار أنهم يقولون والله ربنا ما كنا مشركين مع قوله تعالى « ولا يكتمون الله حديثا » وقوله تعالى « هذا يوم لا ينطقون » مع قوله تعالى « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » وقوله تعالى « نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما » مع قوله تعالى « ورأى المجرمون النار » وقوله تعالى « دعوا هنالك ثبورا » مع قوله تعالى « سمعوا لها تغيظا وزفيرا » وقوله تعالى « فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون » مع قوله تعالى « فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان » وقوله تعالى « وان منكم الا واردها » مع قوله تعالى « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها

عليهم ولاهم يحزنون) فنفى بذلك كل تنقيص اذا كان جميعه في حصول مكروه وفوت محبوب وقد نفاهما بذلك وقال فى فاكهة أهل الجنة (لامقطوعة ولاممنوعة) فنفى بذلك جميع الآفات العارضة لمطاعم الدنيا وقال فى صفة خمرهم (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) فنفى بذلك كل مكروه يعرض فيها وأخبر بكل ما كان من أمر فرعون وآله بألفاظ يسيرة وذلك فى قوله « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين » فذكر فيه ماقيل انه ينطوى عليه من أوراق وجلود من السفر ومن عجيب مافيه ان كل ماعلم السامع واستغنى عنه من ألفاظ ترك ذكره وتخطى الى مابعده نحو قوله تعالى (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) فترك ما كان من موسى ثم ترك ما كان منه ومن أصحابه فى دخولهم البحر وتخطى الى ذكر ماصنع بهم . وأما الراجع الى المعنى فذكره تعالى أصولا منطوية على فروع بعضها بينه النبي عليه السلام وبعضها فوض استنباطه الى الراسخين فى العلم تشريفا لهم وتعظيما لمحلهم لكي تقرب منزلة علماء هذه الامة من منزلة الانبياء فى استنباطهم بعض الاحكام ولاختصاص هذه الامة بهذه المنزلة الشريفة قال عليه الصلاة والسلام كادت أمتى تكون أنبياء وعلى ذلك قال تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » الآية وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس فجعلهم في ذلك بمنزلة الانبياء .

(فصل فى انطواء القرآن على البراهين والادلة)

[ما من برهان ولادلالة وتقسيم وتحديد مبنى على كليات المعلومات العقلية والسمعية الا وكتاب الله تعالى قد نطق به لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين لامرين أحدهما بسبب ماقاله (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) الآية والثانى ان المائل الى دقيق المحاجة

هو العاجز عن اقامة الحجة بالجلى من الكلام فان من استطاع أن يفهم بالاوضح الذى يفهمه الاكثرون لم ينحط الى الاغمض الذى لايعرفه الا الاقلون مالم يكن ملغزا فاخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهيم العامة من جليها مايقنعهم ويلزمهم الحجة ويفهم الخواص من أثنائها مايوفى على ماأدركه فهم الحكماء وعلى هذا النحو قال عليه الصلاة والسلام ان لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حدا ومطلعا لا على ماذهب اليه الباطنية ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ولذلك اذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة باضافتها الى أولى العقل ومرة الى أولى العلم ومرة الى السامعين ومرة الى المفكرين ومرة الى المتذكرين تنبيها على ان بكل قوة من هذه القوى يمكن ادراك حقيقة منها وذلك نحو قوله تعالى « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » وغيرها من الآيات

(فصل فى الاحكام التى عليها مدار الاديان وما يجوز فيه النسخ ومالا يجوز فيه من الاحكام)

الاحكام التى تشتمل عليها الشرائع ستة . الاعتقادات . والعبادات . والمشتهيات والمعاملات . والزاجرات . والآداب الخلقية . فالاعتقادات خمسة اثبات وجود البارئ جل ثناؤه بصفاته واثبات الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين خلقه والكتاب والرسل والمعاد وقد انطوى على ذلك قوله تعالى « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر » الاية وأما العبادات فثمانية الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والاعتكاف والقرابين والكفارات . والمشتهيات أربع المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمعاملات أربع المعاوضات كالبيع والاجارة ومايجرى مجراهما والمخاصمات كالدعاوى والبينات

والامانات كالودائع والعوارى والتركات كالوصايا والمواريث والمزاجر خمس مزجرة عن فوات الارواح حفظاً للنفوس كالقصاص والدية ومزجرة لحفظ الاعراض كحد القذف والفسق ومزجرة لحفظ الانساب كالجلد والرجم ومزجرة لحفظ الاموال كالقطع والصلب ومزجرة لحماية البيضة كالقتل للمرتد وقتال البغاة وأما الاداب الخلقية فثلاثة ما يختص به الانسان في نفسه واصلاح أخلاقه كالعلم والحلم والسخاء والعفة والشجاعة والوفاء والتواضع وما يختص به في معاشرة ذويه ويختص به كبر الوالدين وصلة الارحام وحفظ الجار ورعاية الحقوق ومواساة أهل الفقر ونصرة المظلوم واغاثة الملهوف وما يختص به أولو الامر من سياسة الرعية والفرق بين الشرعيات والاداب الخلقية ان الشرعيات محدودة الكميات والكيفيات ولتاركها عامتها عقوبة محدودة. وأما الاداب الخلقية فغير محدودة الكميات والكيفيات وليس لتاركها عقوبة بل هى موكولة الى ذوى الانفس الزكية (وما يعقلها الا العالمون) وعلى جمهور ذلك دل قوله تعالى «وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه» الى قوله (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) وأشرف هذه الانواع الخمسة الاعتقادات لانه في حيز العلم والباقيات في حيز العمل والعلم هو المبدأ والعمل تمام ولا يكون تمام بلا مبدأ وقد يكون مبدأ بلا تمام ولان العلم أصل والعمل فرع ولا ثبات للفرع الا بالاصل كما لا كمال للاصل الا بالفرع ومتفق عند كل أحد ان الاعتقاد مقدم على العمل حتى انهم يتباينون بما ينفع من الاختلاف فى الاعتقادات دون الاعمال وتصير بفساد الاعتقاد المحاسن كلها مقابح ثم يتبعه أمر العبادة فان المخل بالصلاة والصيام والاغتسال من الجنابة عند المسلمين أعظم من مرتكب الظلم وكذا ترك السبت عند اليهود وترك العبادة عند النصارى وترك الزمزمه عند المجوس أعظم من ظلم العباد فان العبادة هى المحافظة

على حق الله والورع عن ظلم الناس المحافظة على أحكامه والعابد أعلى من الورع وبعد ذلك يجب ان نبين ما يجوز فيه النسخ ومالا يجوز وقد علم أن النسخ لا يصح الا فى التعبد الذى هو الامر والنهى دون الاخبار كما يصح ذلك فى الاعتقادات المذكورة اذ كان ذلك أشياء أمرنا ان نعرفها على ماهى به فنعتقدها بحسب ماهى عليه وذلك لا يتغير وما كان من الآداب الخلقية فانما هى عقليات ظاهرة لا يأتى شرع بخلاف مقتضاها. وأما العبادات والمعاملات والمزاجر فما لا يصح فى أصولها النسخ وانما يصح فى فروعها وذلك انه محال ان تنفك شريعة من الشرائع عن عبادة الله تعالى واقعة فى حيز البدن وهى مثل الصلاة وعبادة فى حيز المال وهى كالزكاة وعبادة فى امساك الشهوة كالصوم وان تنفك عن معاملات تحثهم على العدالة وتمنعهم عن التهارج وعن مزاجر تزجرهم عن استباحة نفوس الغير واعراضهم وأموالهم وانسابهم واما هيآتها واشكالها وامكنتها وأزمنتها واعدادها فهى فروعها التى لم تزل بعرض النسخ على حسب ما عرف الله تعالى من مصلحة كل قوم ومما يدلك على انه لا نسخ فى عامة أصول هذه الاشياء ما ورد من النصوص على ذلك في القرآن نحو قوله تعالى «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» وقوله «وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» الاية وقال حكاية عن عيسى (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) وقال في الزكاة (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) وقال في القبلة (ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) وقال في الصوم (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) وقال فى الاعتكاف (وطهر بيتى للطائفين والعاكفين) وقال في القرابين (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا) وحكى عن اليهود (الذين قالوا ان الله عهد الينا

أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) وفي الجهاد (وكاين من نبي قاتل معه ربيون كثير) وقال فى القصاص (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس) وقال في المطاعم والمشارب (كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل) الاية وقال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات) وقال في المزاجر (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) وقال في أخرى (لهدمت صوامع وبيع) وقال (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة) وذكر في الاداب وصايا لقمان لابنه وهو يعظه (يابنيّ لاتشرك بالله) الى قوله (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا) الى غير ذلك من الايات وآكد من ذلك كله (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) الى قوله (ان هذا انى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى) وقال في الردع (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) فان قيل ان المزاجر ليست في كل شريعة ألا ترى انه قيل لم تكن في النصرانية لما روى عن عيسى عليه السلام اذا لطم أحدكم على أحد جانبيه فليعرض عليه الجانب الاخر وقال ادع الناس الى الدين بالمقال دون القتال قيل ان المزاجر كما تكون بالقتال قد تكون بالمقال فلا بد ان يكون لهم مزاجر ثم ان مزاجرهم قد وردت بها التوراة فاستغنى بها عيسى عليه السلام عن تبيينها وماذكر من تمكين الجانب الاخر من اللطم فحث منه على العفو واحتمال المكروه .

(فصل فيما يحتاج اليه فى التفسير من الفرق بين النسخ والتخصيص)

النسخ والمسخ يتقاربان كذا قال الخليل الا ان المسخ في نقل الاعيان والنسخ فى نقل الصور نحو نسخ الكتاب وهو نقل صورة الكتابة الى غيره من غير إبطال لرسم الاول ونسخ الظل الشمس اذا أزالها وحقيقة النسخ إزالة مثل الحكم الثابت بالشرع بشرع آخر مع التراخى والفرق بينه وبين التخصيص ان

التخصيص قد يكون في الخبر والنسخ لا يكون فيه والتخصيص اخراج مالم يرد بالخطاب من الاعيان والمعاني والامكنة والنسخ اخراج مالم يرد من الحكم في بعض الازمنة والتخصيص في الاكثر مقرون بالمخصوص لفظا أو تقديرا والنسخ لا يكون الا متأخرا عن المنسوخ ومتى اقترن به سمى تخصيصا وكان النسخ في الحقيقة ضربا من التخصيص الا انهما في المتعارف مختلفان وقد تصور عدة ممن صنفوا في النسخ بعض ماهو بيان للمجمل أو تخصيص للعام بصورة الناسخ وذلك نحو قوله تعالى (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا) قال بعضهم نسخ ذلك بقوله (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) وهذا بيان ماليس بظلم من أكل مالهم ونحو قوله تعالى « يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » قال فلم يحرم ثم قال تعالى « انما الخمر والميسر والانصاب » الآية وهذا أيضا بيان للاول وذاك أن ما كانت مضرته أكثر من نفعه فالعقل بالجملة يقتضى تجنبه ولكن لما كان ذلك غير صريح اكده بالآية الأخرى ومن التخصيص الذى يعد نسخا قوله تعالى « ولا تنحكوا المشركات حتى يؤمن » مع قوله تعالى « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » وعلى هذا ما حكي أنه لما نزل قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » شق ذلك على بعض أولى الضرر فنزل قوله تعالى « غير أولى الضرر » مقرونا بقوله تعالى « القاعدون من المؤمنين) وهذا القدر يدل على كثير مما ذكروه من أمثال ذلك .

﴿ فصل ﴾ [فى أنه هل فى القرآن مالا تعلم الأمة تأويله اختلفوا فى ذلك فذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوما والا أدى إلى بطلان فائدة الانتفاع به وأن لا معنى لانزاله وحملوا قوله تعالى (والراسخون فى العلم)

على أنه عطف على قوله تعالى (لا يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم) وجعلوا قوله تعالى (يقولون آمنا به) فى موضع الحال كما قال .

الريح يبكى شجوها ٭ والبرق يلمع في غمامه

أي البرق يبكى لامعا وقوى ذلك بقراءة ابن مسعود فيما قيل (و يقولون آمنا به) بالواو وعامة أعيان الصحابة وكثير من المفسرين بعدهم ذهبوا إلى أنه يصح أن يكون في القرآن بعض مالا يعلم تأويله الا الله . قال ابن عباس انزل القرآن على أربعة أوجه وجه حلال وحرام لا يسع أحدا جهالته ووجه يعرفه العرب ووجه تأويله يعلمه العالمون ووجه لا يعلم تأويله الا الله ومن انتحل فيه علما فقد كذب وحملَ الاية على أحد وجوه ثلاثة أحدها أنه جعل التأويل بمعني ماتؤل اليه حقائق الاشياء من كيفياتها وأزمانها وكثير من أحوالها وقد علمنا أن كثيرا من العبادات والاخبار الاعتقادية كالقيامة والبعث ودابة الارض لاسبيل لنا إلى الوقوف على حقائقها وأزمانها وهذا هو المراد بقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله) الاية والثانى أن من ألفاظه ما أمرنا بأن نتلوها تلاوة وبها نتعبد دون معرفة تأويلها كما تعبدنا بحركات تحصل فى كثير من العبادات فى الصلاة والحج وعلى ذلك حمل قوله تعالى (وقولوا حطة) أي أنهم أمروا بالتفوه بهذه اللفظة والثالث أن كثيرا من الايات مما اختلف المفسرون فيه ففسروه على أوجه كثيرة تحتملها الاية ولا يقطع على واحد من الاقوال فان مراد الله تعالى منها غير معلوم لنا مفصلا بحيث يقطع به والذين ذهبوا المذهب الثانى قالوا قد علم أن الاية نزلت انكارا على قوم طمعوا فى الهجوم على مالا سبيل لهم اليه فأراد تعالى حسم أسباب الخوض فيه ومتى كان فيه تشارك لم ينقطع الشغب اذ كل يدعى معرفته فان قيل أن هذا لاقوام معينين فرجع القول الى مايقوله الامامية أن آيات

من القرآن لا يعرف تأويلها الا الامام و يشهد لهذا قوله تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك)

﴿ فصل ﴾ في بيان حكمة الله تعالى في جعله بعض الايات متشابها (سئل) بعض العابدين فقيل له مابال القرآن جعل بعضه محكما و بعضه متشابها وهلا جعل كله على نمط المحكم حتى كان يكفى الانسان مؤونة النظر الذي قل ما سلم متعاطيه من زلة وهذه مسئلة نسئل عنها في الاحكام أيضاً فنقول هلا بينها كلها حتى يستغنى عن جهد الرأي الذي لا يؤمن خطؤه بل سئل عنها أيضاً في أصل التكليف فيقال هلا خولنا الله انعامه بلا مشقة ولا مؤنة حتى كان عطاؤه اهنأ منالا فقال (الجواب) عن جميع ذلك واحد وهو أن الله تعالى خص الانسان بالكفر والتميز وشرفه بهما حتى قال تعالى (وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا) وجعله بذلك خليفة في الارض فقال للملائكة (انى جاعل في الارض خليفة) وقال تعالى (ليستخلفنهم في الارض) وقال تعالى (ليستخلفكم في الارض) الاية وقال تعالى (واستعمركم فيها) وكفاه شرفا بما أعطاه من هذه المنزلة أنه قد يصير لاجلها شريفا موصوفا بالعلم والحلم والحكمة وكثير من الصفات التى هي من صفاته تعالى وان لم تكن على حدها وحقيقتها ولما خصه الله تعالى بهذه الفضيلة أعني بالفكر والروية أعطاه كل ما أعطاه من المعارف قاصرة عن درجة الكمال ليكمله الانسان بفكرته لئلا تتعطل فائدتها والا كانت موجودا الا فائدة فيه وذلك شنيع يتنزه عنه البارى سبحانه وعلى ذلك أحوال كل ما أوجده لنا من المأكولات والمشروبات لأنه أوجدلنا أصول الأغذية ثم هدانا بما خولنا من التميز الى تركيبها وتناول ما نحتاج اليه على الوجه الذى نحتاج وفي الوقت الذي نحتاج فاذا ثبت ذلك فتأويل كتاب الله تعالى وأحكامه وشرائعه وسائر معانيه قسمان جلى وخفى فالجلى ما أدركناه

(الفكر)

إما بالحاسة أو بديهة العقل والخفي ما يتوصل اليه بوساطة أحد هذين فسبحان الذي شرف الانسان بهذه المنزلة السنية لتكون ذريعة له الى ادراك الحياة الابدية وتحصيل مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر كما قال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)

{ فصل فى شرف علم التفسير }

أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن وتأويله وذاك أن الصناعات الحقيقة انما تشرف بأحد ثلاثة أشياء إما بشرف موضوعاتها وهى المعمول فيها نحو أن يقال الصياغة أشرف من الدباغة لان موضوعها وهو الذهب والفضة أشرف من جلد الميتة الذي هو موضوع الدباغة وإما بشرف صورها نحو أن يقال طبع السيوف أشرف من طبع القيود وإما بشرف اغراضها وكمالها كصناعة الطب التى غرضها افادة الصحة فانها أشرف من الكناسة التى غرضها تنظيف المستراح فاذا ثبت ذلك فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاثة وهو أن موضوع المفسر كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة وصورة فعله اظهار خفيات ما أودعه منزله من أسراره ليدبروا آياته (وليتذكر أولو الالباب) وغرضه التمسك بالعروة الوثقى التى لاانفصام لها والوصول الى السعادة الحقيقية التى لافناء لها ولهذا عظم الله محله بقوله تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) قيل هو تفسير القرآن .

{ فصل في بيان الالات التى يحتاج اليها المفسر }

اختلف الناس في تفسير القرآن هل يجوز لكل ذي علم الخوض فيه فبعض يشدد فى ذلك وقال لا يجوز لاحد تفسير شئ من القرآن وان كان عالما أديبا متسعا في معرفة الادلة والفقه والنحو والاخبار والاثار وانما له أن ينتهي الى ماروى

عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضى الله عنهم أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين واحتجوا في ذلك بما روي عنه عليه السلام من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار وقوله عليه السلام من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ وفي خبر من قال في القرآن برأيه فقد كفر وبما روي عن أبى بكر رضى الله عنه أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله برأيي وذكر آخرون أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسره فالعقلاء الادباء فوضى في معرفة الاغراض واحتجوا في ذلك بقوله تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب) وذكر بعض المحققين أن المذهبين هما الغلو والتقصير فمن اقتصر على المنقول اليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج اليه ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى (ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب) والواجب أن يبين أولا ماينطوي عليه القرآن وما يحتاج اليه المفسر من العلوم فنقول وبالله التوفيق إن جميع شرائط الايمان والاسلام التى دعينا اليها واشتمل القرآن عليها ضربان علم غايته الاعتقاد وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وعلم غايته العمل وهو معرفة أحكام الدين والعمل به والعلم مبدأ والعمل تمام ولا يتم العلم من دون العمل ولا يخلص العمل من دون العلم ولذلك لم يفرد تعالى أحدهما من الاخر في عامة القرآن نحو قوله (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) وقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) وقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) ولا يمكن تحصيل هذين الا بعلوم لفظية وعقلية وموهبية . فالاول معرفة الالفاظ وهو علم اللغة . والثاني مناسبة بعض الالفاظ الى بعض وهو الاشتقاق . والثالث معرفة أحكام مايعرض للالفاظ من الابنية والتصاريف والاعراب وهو النحو . والرابع ما يتعلق بذات التنزيل

حقيقة وللمؤنث مجاز وقوله تعالى (يا أيها النبي اذا طلقتم النساء) وعناه والمؤمنين فهو حقيقة فيه ومجاز فيهم وقال الشاعر

ثقال الجفان والحلوم رحاهم   رحى الماء يكتالون كيلامذمذما

فوصف الجفان بالثقل حقيقة ووصف الحلوم به مجاز وقد نظمهما بلفظ واحد وقال آخر. وماء أجن الجمات قفر) فذكر الماء وأراده بمكانه فقد يسمى مكان الماء ماء والدلالة على ارادتهما انه قد وصفه بأجن الجمات وذلك من صفة الماء نفسه وبقفر وهو من صفة المكان وقال ابن هرمة

والحوت يسبح في السما   كسبحه في الماء

وهو بكل سبح عن معنى والحوت السابح في السماء غير السابح في الماء وقالوا القمران للشمس والقمر وذلك في الشمس مجاز لامحالة فان قيل ان ذلك لا يصح من حيث ان المتكلم به يكون مريدا استعمال اللفظ فيما وضع له والعدول به عن الموضوع له في حالة واحدة وذانك أمران متنافيان في المراد وهذه عمدة من منع من جواز ذلك قيل ان ذلك انما ينافي اذا وضع لفظ فاستعمل في معنى واحد على انه منقول اليه عن غيره ومستعمل في موضعه أما اذا استعمل في أحد معنيين لا على النقل بل على الوضع له وفي الاخر على النقل اليه صح ارادتهما معا ثم ليس من شرط المتكلم ان يخطر بباله كيفية وضع اللفظ من حقيقة ومجاز وأيضا فما من لفظ مستعمل في شيئين حقيقة فيهما أو مجازا في أحدهما الا ويجمعهما معنى عام لهما على طريقة من يراعى مناسبة الالفاظ نحو ان يقال الحيوان في الاسد والحمار ويعنى بالاسد الحيوان الجرئ وبالحمار الحيوان البليد وذلك متناول للبهيمة والانسان معاً فيصح ان يرادا كما يقال الحيوان الجرئ والحيوان البليد ومما يحمل من القران على ذلك قوله تعالى (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) وذلك عام في الانسان وغيره وقد علم ان الانسان يسبح بلسانه وفعاله والجمادات ليست تسبح كذلك

وقد قرنهما بلفظ واحد وعلى ذلك قوله تعالى (ووجدك عائلا فأغنى) قيل غنى بذلك الغنى بالكفاية والغنى بالقناعة معاً وأمثال ذلك في القرآن أكثر من ان يحصى هنا ولمثل هذه المعاني المجتمعة فيه قال تعالى (ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) وعلى ذلك روى فى الخبر لكل حرف ظهر وبطن ولكل حرف حد ومطلع تنبيهاً على كثرة معانيه المجتمعة تحت اللفظة بعد اللفظة.

(فصل فى اعجاز القرآن)

المعجزات التى أتى بها الانبياء عليهم السلام ضربان حسى وعقلى فالحسى مايدرك بالبصر كناقة صالح وطوفان نوح ونار ابراهيم وعصى موسى عليهم السلام والعقلى ما يدرك بالبصيرة كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً والاتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم فاما الحسى فيشترك فى ادراكه العامة والخاصة وهو أوقع عند طبقات العامة وآخذ بمجامع قلوبهم وأسرع لادراكهم الا أنه لايكاد يفرق بين ما يكون معجزة فى الحقيقة وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً أو سبباً اتفاقياً أو مواطأة أو احتيالا هندسياً أو تموبهاً وافتعالا الا ذو سعة فى العلوم التى يعرف بها هذه الاشياء وأما العقلى فيختص بادراكه كملة الخواص من ذوى العقول الراجحة والافهام الثاقبة والروية المتناهية الذين يغنيهم ادراك الحق وجعل تعالى أكثر معجزات بنى اسرائيل حسياً لبلادتهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الامة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التى صاروا بها كالانبياء ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كادت أمتى أن تكون أنبياء ولان هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ وكانت العقليات باقية غير مبتذلة جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية وما أتى به

النبي صلى الله عليه وسلم من معجزاته الحسية كتسبيح الحصا في يده ومكالمة الذئب له ومجيء الشجرة اليه فتدحواها وأحصاها أصحابه وأما العقليات فمن تفكر بما أورده عليه الصلاة والسلام من الحكم التى قصرت عن بعضها أفهام حكماء الامم بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة ومما خصه الله به من المعجزات القرآن وهو آية حسية عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر مبثوثة في الارض ولذلك قال تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه اية من ربه قل انما الايات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) ودعاهم ليلا ونهارا مع كونهم أولى بسطة في البيان الى المعارضة بنحو قوله (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله) وفي موضع اخر(وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) وقال (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فجعل عجزهم علما للرسالة فلو قدروا ماقصروا و بذلوا أرواحهم في اطفاء نوره وتوهين أمره فلما رأيناهم تارة يقولون لاتسمعوا لهذا القرآن وألفوا فيه وتارة يقولون لوشئنا لقلنا مثل هذا وتارة يصفونه بأنه أساطير الاولين وتارة يقولون لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة وتارة يقولون ائت بقرآن غير هذا أو بدله كل ذلك عجزا عن الاتيان بمثله علمنا قصورهم عنه ومحال أن يقال أنه عورض فلم ينقل فالنفوس مهتزة لنقل مادق وجل وقد رأينا كتبا كثيرة صنفت فى الطعن على الاسلام قد نقلت وتداولت وهذه الجملة المذكورة وان كانت دالة على كون القرآن معجزا فليس بمقنع الا بتبيين فصلين أحدهما أن يبين ما الذي هو معجز أهو اللفظ أو المعنى أم النظم أم ثلاثتها فان كل كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة والثانى أن المعجز هو ما كان نوعه غير داخل تحت الامكان كاحياء الموتى وابداع الاجسام فأما ما كان نوعه مقدورا فمحله محل الافضل وما كان من باب الافضل فى النوع فانه لا يحسم نسبة ما دونه اليه وان تباعدت النسبة حتى صار جزأ من ألف فان النجار الحاذق وان لم يبلغ شأوه لا يكون معجزا اذا استطاع غيره جنس فعله فنقول و بالله التوفيق إن الاعجاز قد ذكر في القران على وجهين أحدهما اعجاز متعلق بفصاحته والثانى بصرف الناس عن معارضته . فأما الاعجاز المتعلق بالفصاحة فليس يتعلق ذلك بعنصره الذى هو اللفظ والمعنى وذلك أن ألفاظه ألفاظهم ولذلك قال تعالى (قرانا عربيا) وقال (الم ذلك الكتاب) تنبيها على أن هذا الكتاب مركب من هذه الحروف التى هي مادة الكلام ولا يتعلق أيضا بمعانيه فان كثيرا منها موجود فى كتب المتقدمين ولذلك قال تعالى (وانه لفى زبر الاولين) وقال (أولم تأتيهم بينة ما في الصحف الاولى) وماهو بمعجز فيه من جهة المعنى كالاخبار بالغيب فاعجازه ليس يرجع الى القرآن بما هو قرآن بل هو لكونه خبرا بالغيب وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره وسواء كان موردا بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخري أو باشارة أو بعبارة فاذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآنا كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعرا أو الخطبة خطبة فالنظم صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصره و باختلاف الصورة يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره كالخاتم والقرط والخلخال اختلفت أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة فاذا ثبت هذا ثبت أن الاعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص و بيان كونه معجزا هو أن نبين نظم الكلام ثم نبين أن هذا النظم مخالف لنظم سائره فنقول لتأليف الكلام خمس مراتب الاولى نظم وهو ضم حروف التهجي بعضها الى بعض حتى يتركب منها الكلمات الثلاث الاسم والفعل والحرف والثانية أن يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها الجمل المفيدة وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعا في مخاطباتهم وقضاء حوائجهم ويقال له المنثور

من الكلام والثالثة أن يضم بعض ذلك الى بعض ضما له مبادي‌ء ومقاطع ومداخل ومخارج ويقال له المنظوم والرابعة أن يجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له المسجع والخامسة أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص ويقال له الشعر وقد انتهى وبالحق صار كذلك فان الكلام إما منثور فقط أو مع النثر نظم أو مع النظم سجع أو مع السجع وزن والمنظوم اما محاورة ويقال لها الخطابة وإما مكاتبة ويقال لها الرسالة وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة ولكل من ذلك نظم مخصوص والقرآن حاو لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها بدلالة أنه لا يصح أن يقال القرآن رسالة أو خطابة أو شعر كما يصح أن يقال هو كلام ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم ولهذا قال تعالى (وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) تنبيها على أن تأليفه ليس هيئة نظم يتعاطاه البشر فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الاخر فان قيل ولم لم يتبع نظم القرآن الوزن الذي هو الشعر وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبة أعلى من مرتبة المنظوم غير الموزون اذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزونا قيل انما جنب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصية فى الشعر منافية للحكمة الالهية فان القرآن هو مقر الصدق ومعدن الحق وقصوى الشاعر تصوير الباطل في صورة الحق وتجاوز الحد في المدح والذم دون استعمال الحق في تحري الصدق حتي ان الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق الا بالعرض ولهذا يقال من كانت قوته الخيالية فيه اكثر كان على قرض الشعر أقدر ومن كانت قوته العاقلة فيه اكثر كان فى قرضه أقصر ولاجل كون الشعر مقر الكذب نزه الله نبيه عليه الصلاة والسلام عنه لما كان مرشحا لصدق المقال وواسطة بين الله وبين العباد فقال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) فنفى ابتغاءه له وقال تعالى (وماهو بقول شاعر) أى ليس بقول كاذب ولم يعن

أن ذلك ليس بشعر فان وزن الشعر أظهر من أن يشتبه عليهم حتى يحتاج الى أن ينفى عنه ولاجل شهرة الشعر بالكذب سمى أصحاب البراهين الاقيسة المؤدية فى اكثر الامر إلى البطلان والكذب شعرية وما وقع فى القرآن من الالفاظ متزنة فذلك بحسب مايقع فى الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس فيه وأما الاعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً اذا اعتبر وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الافعال محمودة كانت أو مذمومة إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقية الهية بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف لينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه فى مزاولتها فيقبلها باتساع قلب ويتعاطاها بانشراح صدر وقد تضمن ذلك قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) فلما رؤى أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون فى كل واد من المعانى بسلاطة ألسنتهم وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن وعجزهم عن الأتيان بمثله وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدى لمعارضته لم يخف على ذى لب ان صارفا الهيا يصرفهم عن ذلك وأى اعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة فى الظاهر أن يعارضوه ومجبرة فى الباطن عن ذلك وما أليقهم بانشاد ماقال أبو تمام •

فان نك أهملنا فاضعف بسعينا ٭ وان نك أجبرنا ففيم نتعتع

والله ولى التوفيق

(يقول المتوسل بصالح السلف ٭ مصححه الفقير عبد الجواد خلف)

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن نزه كلامه المتين . عن مطاعن الطاعنين . وأرسل رسوله الصادق
الامين . فعبر عنه بلسان عربي مبين . القائل فى محكم كتابه المكنون (إنا
نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون) وقال تنويهاً على شريف وصفه . (لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه) . وصلاة وسلاما على أشرف من نطق بالضاد . وأفحم
بقوى حجته كل من عاند وضاد . سيدنا محمد بن عبد الله . وعلى آله وصحبه
ومن والاه ﴿ وبعد ﴾ فقد تم باعانة القوى المعين الظاهر الباطن . طبع كتاب
(تنزيه القرآن عن المطاعن) املاء من اشتهر صيته وطار . في عموم الاقاليم والاقطار .
قاضي القضاة عماد الدين أبى الحسن (عبد الجبار) على نفقة الاستاذ الفاضل . الهمام
الكامل . الشاب المهذب . الكامل المؤدب . ذى المساعى المشكورة والاخلاق
المرضية . حضرة الامجد (السيد محمد سعيد الرافعى الفاروقى) الشهير
صاحب المكتبة الازهرية جمل الله أحواله . وأحسن أعماله . وكان
هذا الطبع الحسن الجميل . والصنع الفائق الجليل .
(بالمطبعة الجمالية) العامرة بمصر المعزية
القاهرة . وذلك في شهر ذى الحجة الحرام .
الذي هو لشهور سنة ١٣٢٩
من الهجرة ختام